ما ذنبها ؟...

أقصوصة مصرية

بقلم الآنسة جميلة العلايلي

صعق الرجل عند ما بلغه خبر خطبتها وكان على يقين من أنها لن تتزوج غيره ، لأنها أحبته بدليل أنها بادلته الحب وارتضت به زوجاً والآن ما عساه يفعل ... هل ينتقم ؟ أم يتناساها ويحب غيرها ؟ أم يسعى إليها علها تعود إليه ... ؟

وارتمى الرجل على مقعده مهموماً مفكراً يتخيلها بجمالها الرائع وروحها الساحرة وعواطفها الطاغية وعقلها النابه ...

استعاد كل ماضيه وما يحمله من ذكرى جامحة، فأحس أن خسارته بفقدها لن تعوض أبداً ... أبداً ... وأنه لن يعثر على فتاة تماثلها عفة ورقة وسحراً وذكاء ...

فيا أعظم المصاب !

بكى فلم يرفه الدمع عنه !

وخرج إلى الشارع يمشي كالشارد فاصطدم بسيارة حمل على أثرها إلى المستشفى ... وظن الأطباء أن الحمى التي انتابته من أثر الصدمة . ولو أنهم كانوا بخفايا القلوب عالمين لعرفوا موضع الداء الدفين ، ولأدركوا أن الحمى في قلبه ، وصداها في مخه !

خائنة ... غادرة ... مجرمة ...

لم يكن لديه سوى ترديد هذه الألفاظ بصوت متقطع محموم ...

وشكت الممرضة في أمره ...

واستطاعت أن تفهم بحكم غريزتها أن أمام ناظريه خيال امرأة ، قد تكون سبب هذه الصدمة أو سبب هذه الحمى ... الله يعلم

وانتهزت فرصة غفوته العميقة فانسلت خفية إلى غرفته تبحث في محفظته ... حتى رأت بين أوراقه رسالة موجزة من فتاة تقول فيها :

أخي الفاضل

لا أحب أن أكون أكذوبة هائلة في تاريخ حياتك ، إذن يجب أن نسدل الستار

واستمع إلى بعقلك ولعلك لا تكون من الظالمين . لقد تمارقنا على غير ارتقاب ، وتحاببنا لغير غاية ... ولعلك تذكر يوم لقيتني في منزل الخالة وقدمتني إليك زوجها ... وكان ذلك في عيد ميلاد ابنته ... وانتهزت فرصة خلو المكان إلا منا فحدثتني عن نفسك في صراحة مطلقة أكبرتك من أجلها ... وصورت إلي في مرارة ما تعانيه من حرمان وآلام من جراء يتمك ... ولم تكد تصل إلى هذا الحديث الحزن باكياً في هدوء حتى أحسست أن دموعك خرجت من قلبك لتسكب في قلبي ، ولذا أؤكد لك أن دموعك وحدها هي التي جذبتني ... ثم عرجت في حديثك على حياتك الخاصة فأفهمتني أنك تلهو بالحسان وتقضي طوال الليل خارج الدار مع جمهرة من الشبان وعلقت على ذلك بأنك مضطر إلى هذا الفساد لخلو قلبك من الحب ولعدم توفيقك إلى امرأة تحميك وترعاك ...

وافترقنا على أمل أن تكون كصديقين أو أخوين، ولم أر غضاضة فى قبول صداقتك ما دامت تدفع عنك الضر والشر كما زعمت ...

تراسلنا وتقابلنا وحاولت جهدى أن آخذ من رسائلى أداة لإصلاحك وأن أسيطر على عواطفك كلما قابلتك لأوجهك إلى الطريق المستقيم ...

فلم أدع صغيرة ولا كبيرة تدفعك فى طريق الجد إلا لفت نظرك إليها ...

أغريتك بكل ما فى قلبى من رحمة وبكل ما فى عقلى من ذكاء لأنتشلك من البؤرة الدنسة وأرفعك من الأوحال إلى سماء الطهر والكمال ...

فكنت تكتب إلى بأسلوب رائع لتوهمنى أنك تسير فى الطريق المرجو فى غير هوادة ... وأنك على خير ما أتمنى لك من خير وفضيلة

وبرغم تصرفاتك الخاطئة التى كنت أكتشفها بالمصادفة . . كنت أتسامح وأقول لنفسى من العسير أن يتحرر من قيود المجتمع دفعة واحدة ...

وفى الواقع يا أخى أنت بارع فى تلفيق الأكاذيب .. بدرجة أنى كنت أثق فيك مع أن البراهين تؤكد سوء تصرفاتك .. والكذب عندك غريزة. أوه ... ! لطالما ضايقنى كذبك وأرقنى وأسلمنى إلى أمر الآلام وأظلم الأحلام ... ورغم ذلك كنت أريد أن أجرب قدرتى فيك ...

فكنت أتجاهل وأتسامح علنى أنجح فى تأدية مهمتى ...

ولكن عبثاً ...

كيف أنجح وأنت بعيد عنى تعيش هنالك كما يحلو لك ... مطمئناً إلى تسامحى وحبى ... فى الواقع لم أحببك ...

ولكننى اتخذت الحب وسيلة إلى إصلاحك لأنك أفهمتنى أنك لا ترتدع عن الإثم إلا إذا أحبتك امرأة ...

ولم أمقتك بل كنت أشفق على شبابك الذى يذويه الفجور وكنت أتمنى أن أخلق منك الرجل الكامل، ثم أدع الطبيعة بعد ذلك تدنينى منك أو تقصينى عنك ...

نوهت لى عن الزواج فلم أمانع ... لا حباً فيه أو فيك ... بل رغبة فى أن أصل بك إلى مستوى أرفع من مستوى الرجال ... ضحيت فى سبيلك عالى ووقتى وجعلتك محور تفكيرى وحسّى ... على أمل أن تصلح ولكنك كنت تقول ولا تفعل ... كنت تصارحنى بأنك ستعمل كذا وكذا ... وقد عملت كذا وكذا ... فإذا اكتشفت الحقيقة واستوضحت الأمر ... ظهر كذبك ونفاقك ...

ربّاه ... لشد ما عذبنى هذا وكنت أصبر راجية أن تكون من المهتدين ...

كانت رسائلى وحدها كافية لإصلاحك وكان حنوى وعطفى كافيين لإشباعك . . . ولكنك فى الواقع خلقت لغير الحب الأكيد — صدقنى —

لم يكن فى نيتى أن أحب غيرك أو أتزوج سواك؟ إذ كنت أريد أن أشعر بالتيه الخالد، لأننى خلقت رجلاً ... وعجيب أن يكون للعاطفة شيطان يحولها من الفضيلة إلى الرذيلة ومن الأمل إلى اليأس ومن الحب إلى الكراهية ...

وكان شيطان حبى ... كذبك ... فقتلنى عليه وحوله إلى يأس مرير

ولطالما صارحتك بذلك وقلت لك إن الرجل الذى يكذب مرة لا يصدق مرة. وأخشى أن تفقدنى بسبب

هاذا الكذب مخاذر ... فكنت تدافع فى براعة المحامين ولباقة السياسيين حتى أضطر للسكوت لا عن إيمان وتسليم بل عن جد ورجاء ...

أخيراً ...

أجل أخيراً أيقنت أننا لو تزوجنا لا يمكن أن نتفق أبداً ... أبداً ... وسنكون وصمة فى جبين التفاهم الروحى الأكيد — فآثرت أن أقف بجانبك موقف الأخت البارة ترعاك من بعيد بقدر المستطاع مرحبة بالخطيب الحبيب لما بيننا من تفاهم وتآلف ... وأحمد الله الذى وحد بين قلبينا وروحينا ...

والذى أريده منك الآن ... أن تعود إلى رسائلى وأن تستعيد ذكرى كل ما قلته لترى أنى أخلصت لك يوم ظننت أنك تصلح لأن تكون مثلى الأعلى ... فلما واجهتنى بحقيقتك تنبه وجدانى ، فإذا بالحب كظلك الذى تلاشى عند ما اختفيت عن ناظرى فى آخر لقاء ...

يا سيدى ... أو يا أخى إن شئت : الحب كالبنيان تندك قوائم عرشه بالثقة ويزعزعه الشك وأخيراً يحطمه الكذب والبهتان

ونصيحتى إليك أن تحب المرأة صادقاً وتفهمها صادقاً وتكشف لها عن مساوئك صادقاً ، ثم حاول إصلاح نفسك صادقاً . إنها تدفع دمها ثمناً لهذا الصدق . والشيطان يسخر منك عند ما يحلل لك الكذب مخاذر . . .

كوثر

* * *

فهمت الممرضة كل شيء ... فأشفقت على الرجل وفكرت ، أترى المرأة أخطأت ؟

وكانت الممرضة ذكية فلم تشأ أن تحكم لها أو عليها حتى تراها ...

ولكن كيف ؟

آه ... ها هو عنوانها فى الرسالة ...

إذن فلتكتب إليها فالمريض يحتضر ويدعوها ...

وظل المريض يهذى :

خائنة ... غادرة ... مجرمة ...

اندمل جرح الصدمة الطارئة ولم يندمل جرح القلب الدامى ...

حتى جاءته

مريض يحتضر يدعوها ؟ ... ولم تجد غضاضة فى عيادته .

وأفهمتها الممرضة فى حكمة ودهاء ... أنها بعثت إليها رحمة به لأنه يهذى باسمها وقد فهمت من هذيانه كل شيء .

فشكرتها الفتاة وولجت باب المريض فى هدوء ولهفة ... ونادته ...

فرفع بصره فى بطء ، وقد اربد وجهه فجأة ... ثم غض طرفه مليا ، وأخيراً ابتسم فى مرارة وقد انطلق وجهه وغمغم ... كوثر ...

قالت : ساءنى مصابك . لكن الممرضة طمأنتنى فالحمد لله

قال : وهل تهمك حياتى ... خير لى أن أموت

قالت : كيف لا تهمنى حياتك وأنا أرجو لك كل خير وتوفيق ...

وهنا أحس الرجل بانتعاش غريب فنسى ما كان يشغله من الهواجس القاتمة ، واعتدل فى مقعده ثم اقترب منها لتمتزج أنفاسها العبقة بأنفاسه الحرّى قائلاً : أوتذكرين يا كوثر ما مر من حلو الأيام ...

فلم تشأ أن تثير مجرى خياله وقالت : طبعاً أذكر فابتسم وأعقب : أتذكرين يوم اجتمعنا فى غفلة

القدر تحت نخيلة فى إحدى الحدائق النائية وكنا أشبه بعصفورين أليفين ضمهما الوكر فى جو الصفاء، وأحسست يومئذ رغم حاجز العفة الذى كنت تحرصين دائماً على إقامته بيننا أننا التحفنا بغطاء واحد — لا أذكر كيف كان — أكانت ماديتنا هى التى تعطلى روحينا، أم نور الحب هو الذى كان يكتنفنا حتى بتنا كأننا نور من نوره. لقد كنت أجهل موضعك منى وموضعى منك ... ولما سألتك: أين أنا منك؟ أجبتنى: وأين أنا منك؟

ولم يكن كلامنا بهذه الحروف المعهودة بل كان بلغة الصمت الجليلة التى تنساب من قلب إلى قلب كما ينساب النور فى الأفق. ولما قلت لك: يخيل إلى لو أنى جردت نفسى من العفة واعتصرتك لما ارتويت أبداً ... أبداً ...

فأشحت بوجهك عنى حياء وابتعدت عنى ثم قلت: لأنك بقدر ما تسلب منى أسلب منك!

فانهمرت دموعى من فرط النشوة وقلت: كل يوم يزداد حسنك كأن فى معينك كنزاً من الجاذبية لا يفنى

فلت برأسك دلالاً قائلة: من عند ربى. ولما عاودنى السهوم وأنت حيالى وبدا على وجهى ظلال أحلامى ...

أهبت بى إلى مكالمتك ... ولكننى كنت متفانياً فى نفسك سارحاً فى جنبات قلبك

وظل قلبى يخفق، ونظرك ينطق

وما زلت أذكر نشيدك الذى كنت أتغنى به دائماً كأنه تعويذتى الخالدة:

أخشى عليك من العباب   يطغى عليك بلا حساب
يا قرة العينين بل يا منـــية   القلب المذاب
تفديك روحى يا حبيبى   فى حضور أو غياب
ما العيش بعدك فى الحياة   سوى بريق من سراب
خذنى إليك ونجنى   مما أعانى من عذاب
أنا إن أعش فلأجل أن   ألقاك عنوان الشباب
أنا إن أعش فلأجل أن   أدنيك من كل الرغاب
أمودعى عند المساء   وتاركى لضنى ارتقاب
أتخاطبى؟ مهلاً لعلى   أن أعود إلى صوابى!
يا مهجتى الحرّى حنا   نك قد سئمت من العتاب
ماذا علىّ إذا فتحت   له لدى الترحيب بابى
ووهبته ما شاء من   عناقى وحبى المستطاب
يا ويح نفسى، هل أطيق   غيابه بعد اقتراب؟
أأطيق وهو هو المضىّ   بخاطرى مثل الشهاب؟
يا من هدته عواطفى   فى كل مختلف الشعاب
أبداً أحن إليك يا   رمز الأمانى العذاب

وهنا انشرح ملياً ثم عاد يتأملها فى لهفة بادية قائلاً: غنى يا كوثر ... أعيدى على مسمعى هذا النشيد ... إن كلامك أعذب من أغاريد البلابل ... غنى غنى ...

فاغتصبت بسمة وقالت بصوت تشيع فيه المرارة:

— عند ما تعاودك العافية كاملة أسمعك أجمل الأناشيد ...

فانتصب واقفاً قائلاً:

— أنا بخير ... انظرى ... هاأنذا أتحرك ... وأسير أيضاً ... فى مقدورى أن أخرج الآن ... ولا بد أن أخرج معك ... لن أتركك تخرجين وحدك

فأشفقت عليه لأن آثار الحمى كانت ما زالت ظاهرة عليه وقالت:

— لأعودك فى الغداة وأصحبك إلى الخارج ...
والآن يجب أن أخرج ...

وحاول أن يستمهلها فاعتذرت وانصرفت وتركته واجماً ساكتاً لا يبدى حراكا كالطفل الصغير الذى تتركه أمه فيعجز عن اللحاق بها أو استبقائها بجانبه

* * *

مرت الأيام وهى تموده ... حتى عوفى وترك المستشفى ... وطلب إليها أن تزوره فى منزله فوعدته

وانتظر فى الميعاد فلم تحضر، ومرت الأيام تباعاً ولم تعد ...

وعثر الرجل على الرسالة وكان نسيها ، أو لعل الحمى هى التى أنسته إياها فقرأها ...

تذكر كل شىء ... فثار جنونه واشتعل وجدانه مفكراً فيما يصح أن يعمله . حتى صح عزمه على أن يبعث بجميع رسائلها إلى خطيبها، وهى مجموعة موفورة من الحب المشبوب المتأجج، وفيها ميثاقها على ألا تتخذ منه بديلاً ...

* * *

قد يتخيل المحب أن فى مقدوره أن يصفح ويغفر وأن ينسى الإثم والبهتان

وقد يسهل ذلك على المحب العاقل النبيل إلى حد ما ...

وقد يعتقد المحب أن حبيبه كان يحب من قبل غيره ... ولكنه لا يساير هذا الاعتقاد إذ ليس لديه ما يثبته ... حتى إذا حدث ما يؤكد هذا الزعم حدث ما لم يكن فى الحسبان؛ فاما هجر لا لقاء بعده، أو شك يظل يعذب صاحبه على طول الأيام ...

وخطيب الفتاة كان رزيناً حكيماً ولكنه إنسان له غرائز البشر وخصائص الحب ...

لطالما قالت له الفتاة إنها عرفت كثيراً وجاملت بعض المحبين، وسارت أحياناً فى طريق الحب إذا تراءى لها عفاً بريئاً حتى إذا تكشف لها عن خدعة تنحت عنه وابتعدت ... وكان يستمع إليها ويسامرها دون أى عبث أو ملام ...

ولكنه اليوم بعد أن تسلم رسائلها ساوره الشك واعترته الريبة؛ وفاجأها ثائراً لائماً وكأنها تبدلت من ملائكيتها إلى شيطان رجيم أمام ناظريه فاهتاج وراح يرميها بأبشع التهم وهى ساكتة هادئة باسمة ...

حتى إذا انتهى قالت له : كلانا خدع فى الآخر يا سيدى ... أنت ظننتنى ملكا كريماً فأحببتنى وأنا ظننتك المثل الأعلى للرجولة الكاملة فأحببتك. والآن ... ليس ثمة ما يدعو للغضب ما دمنا فى أول الطريق ... فليبحث كل منا عن شريكه ...

فاغتاظ وفاض شكه وقال : آه فى الطريق أكثر من رجل ينتظرك لأنك رميت شبكة الخداع على كثيرين ... أصدقينى هل أحببت هذا الرجل ؟

قالت : أجل ، كما أحببتك قبل اليوم . فدهش الرجل لجرأتها، ولكنه ظن أنها تهاجه فعاد يقول : ولماذا لم تتزوجيه ؟ قالت : إذا خاب الحب انتصر العقل بما يكتسبه من التجارب والأهوال ... أما الزواج لخيانة موت لا حياة بعده مهما تجدد يظل طابع الخيبة على جبين المرأة مدى السنين ... وصمتت ملياً ثم قالت : يا سيدى إن الرجل إذا أحب صدقاً يغفر للمحب إثمها ... وأنت كما زعمت تحبنى ... فكيف تريد أن تحاسبنى على تصرف لا تدرى كيف تماته ولماذا ؟ !

إذا صعب عليك أن تغفر ذنبي في ماضي فقد صعب عليك أن تغفر ذنوبي في حاضري والإنسان لا يسلم من الخطأ ... إذن ابحث لك عن فتاة لم تتعرف على أي رجل ، وأنصحك أن تأخذ طفلة لم تبلغ الرابعة من عمرها ... وتركته وانصرفت

يا للشيطان ... إنه يلعب على مسرح العقول بمهارة ...

خرج الرجل وانقطع عنها فوطنت النفس على أن ترفضه وتسلوه ...

وحاول الرجل أن يسلوها فلم يستطع لأن ثقته بطهرها من اختباراته كانت أشد تأثيراً في نفسه من شكه فيها ، ولكن يعاوده من حين إلى حين وقع رسائلها في نفسه فيأرق ويتألم ، وظل كذلك ... حتى ذلك اليوم الذي بعثت فيه أخته إلى كوثر رسالة تدعوها لزيارتها لأمر هام ...

فذهبت كوثر ، وفي نيتها أن تضع حداً للعلاقة بينها وبين أخيها وتعلن له رفض يده ...

وهناك قابلتها أخته ، ودخل الخادم يطلب الأخت لمقابلة الوالد ... فخرجت وغابت ... ثم دخل الرجل ... دخل الرجل الحبيب الأول ... مفاجأة لم تكن متأهبة لها . كيف حضر إلى هنا . ولماذا ؟!

لم يترك لها الرجل فرصة لمخاطبته إذ قال : كوثر ... يدهشك أن ألقاك في منزل خطيبك ، وبعد أن عرف علاقتنا القديمة ... ولكنه نبيل كريم كما يدل تصرفه ... إذ لم يشأ أن يحطم قلبي فأباح لي لقياك هنا لنجدد العهد وقد تنازل عنك لي

فضحكت الفتاة متهكمة وقالت : ها ها ها . أتراني سلعة وأنا لا أدري ! لم تعد لي صلة بك أو به ...

فقاطعها : أنسيت حبي يا كوثر ... لقد أحببتني حباً لم تحبه امرأة لرجل وكذلك أحببتك أنا ...

فعادت تضحك ، ثم قالت : لقد أحببت طيفاً مجهولاً فيك ... أما أنت فلم أحبك ... أحببت الإنسان الذي أنشده فيك وله كنت أكتب وعليه أحنو ؛ فلما وجدت ذاتك غير قادرة على حفظ الروح الذي أهفو إليه تنحيت عنك باحثة عن مقر ذاك الروح

لقد كنت تحاول أن تخدعني بالحب لتباهي بحبي فخدعتك بالحب أيضاً لأعرف حقيقتك ؛ فلما عرفتها ارتفعت إلى سمائي ... ولعلك لاحظت فيما مضى أنني كنت أحاول دائماً أن أرفعك إلى الأفق الذي أعيش فيه موطنة النفس على القناعة بك لو استطعت الصعود إليّ ... فلما فشلت وعجزت عن السمو بنفسك إلى مستواي ... تركتك في الأوحال وحدك وحلقت في عالمي النوراني هناك ... فما ذنبي أريد أن أهبط إلى الأرض لأعيش معك لأكون محبة وفية بينا في عمق هذه الحمأة الذلة والهوان ...

لماذا لم ترتفع بإنسانيتك إلى سمائي مادمت تهواني كما كنت تزعم .....

إن الرجل الذي يعجز عن السمو بنفسه في سبيل الحب لا يقدر قيمة الحب ولم يكن محباً أبداً ... أفهمت ما ذنبي إذا استغللت الحب في سبيل الإصلاح فإذا عمّر الخراب به أجمل به من حب ، وإن عجز عن البلوغ بصاحبه إلى الغاية المثلى فليذهب في ذمة التاريخ الضائع ...

ماذنبي إذا ابتسمت ساخرة من عنتك في التغرير بي ظناً منك أن كل الفتيات أسيرات الكلام المعسول والحب المصطنع !

ما ذنبي إذا تغنيت بعذب النشيد مناجية الإله المجهول، فتفاتك المعنى بذلك القصيد ؟!

ما ذنبي إذا صعب عليك تفهم الحقيقة لتسدرك معنى الحب ؟!

وما ذنبي إذا عجزت عن إصلاح نفسك لتدعيم حياتك كما ترجو ...

فقاطعها: أنت الجانية . كان في مقدورك إصلاحي ورعايتي ... لقد تركتني وسط أعاصير الحياة الهوجاء

فقالت: أكنت تريد أن أحبس نفسي في دارك لأرعاك ...

فقال: كنت أريد أن أتزوجك ...

فضحكت متهكمة ثم أعقبت: هيه ... آه ... كان يجب أن أتقدم إليك لأعقد عليك ... أليس كذلك ؟! ... معذرة يا سيدى ... كان يجب أن أفعل ذلك ...

فقال: لقد لوحت لك كثيراً فكنت تماطلين

فأجابته جادة: اسمع . الرجل الذى يريد المرأة ويتمناها لا يسألها رأيها، ولا يستشيرها ماذا يفعل لنيلها، إنه يقتحم الطريق الشائك فى سبيل الوصول إليها، بل يختطفها من بين ذراعى القدر إن تحداه، أتفهم ؟

أما هذه التعاويذ الشيطانية التى يلجأ إليها الرجل ليخدر بها أعصاب المرأة ليغليل من عمر الحب ليتمم ويتسلى فلا أجيزها ولا أفهمها

أنت تعرف جيداً أنى دفعت الثمن غالياً من عواطفى لإنقاذك ... ولكنك أبيت إلا أن تعيش فى الظلام فما ذنبى ...

ولقد أكدت لك أكثر من مرة أنني لم أحبك لأى غاية ولن أحبك أيضاً لغاية ... بل أحببتك لأصلحك ...

إذن لم أكن أنا التى أحببتك ... إنما هو الحب الذى سخرنى ليهديك ... فكفرت به

قال: سأكون كما تشائين ... صالحاً تقياً مؤمناً محباً وفياً ... إن قبلتنى زوجاً؛ وإن أبيت فلأمت، ولتنزل عليك نقمة الله ...

فقالت: الله يعلم كيف أضحى فى سبيل الإيمان به نفسى ...

وهنا دخل خطيبها ملتفتاً إلى الرجل مصوباً إليه نظرة شزراء، ثم قال: كفى يا صاحبى. لقد فهمت كل شىء ... إنها ملك .

« المنصورة » جميل الصلابى

المجموعة الأولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه، والأذيسة لهوميروس، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزأين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد